أثر الخطاب الحجاجي الإسلامي في ترسيخ الوسطية الفكرية ومبادئ الهوية في الجزائر المنهج الباديسي أنموذجا

The effect of the Islamic pilgrim discourse on the establishment of intellectual moderation and the principles of identity in Algeria (the Badisi approach as a model)

عبد الفتاح كرومي[1]
جامعة غرداية
fateh.kerroumi@gmail.com

تاريخ الوصول 06 /2020/08 القبول 2021/01/14 النشر علي الخط 2021/09/15
Received 06 /08/2020 Accepted 14/01/2021 Published online 15/09/2021

ملخص:

يكرس الخطاب أحد مجالات التأويل المفتوحة، والتي تعتمد الحجاج لترسيخ الهوية الفكرية والذود عن المعتقد الموروث، ولما شهد الخطاب آليات قراءة جديدة من خلال المناهج النسقية الحداثية، رافقته آليات تأويل لا نهائية جعلت من زئبقية المصطلح مطية لرفض كل أشكال إثبات الذات والوجود. وبين الإفراط والتفريط والغلو والتساهل تأتي الوسطية الفكرية ضمن الخطاب الحجاجي بأنساق معرفية تنطلق من تسلسل وتراكم معرفي إلى انفتاح الخطاب ضمن مساراته الحداثية بفكر وسطي معتدل ومطلوب.

فما أثر الخطاب الحجاجي الإسلامي في تكريس الوسطية الفكرية، من خلال المنهج الباديسي في الجزائر؟ ما علاقة الخطاب الحجاجي الباديسي بالأنساق المعرفي الحداثية ؟ وما تجلياته في ترسيخ مبادئ الهوية الجزائرية؟

تحاول هذه الدراسة الوقوف على مجالات الخطاب الحجاجي وانفتاحه على الأنساق المعرفية الحداثية إلى ترسيخ الفكر الوسطي والهوية والقيم.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الحجاج، الوسطية، آليات القراءة، التأويل.

Abstract:

The speech devotes one of the open fields of interpretation, which adopts pilgrims to establish intellectual identity and defend the inherited belief, and when the speech witnessed new reading mechanisms through modernist methodological approaches, it was accompanied by endless mechanisms. And between excess, negligence, hyperbole and indulgence, the intellectual moderation within the openness of the discourse within its modernist paths with a moderate and desired moderate thought. What are the dimensions of the Hajjaji speech in perpetuating intellectual moderation, and entrenching the principles of identity? And to what extent can the horizons of the pilgrim's discourse be used to defend values, principles and identities? This study attempts to identify the domains of Al-Hajjaj's discourse and its openness to modernist cognitive systems, to consolidate moderate thought, identity and values.

Keywords: Discourse, pilgrims, moderation, reading mechanisms, interpretation.

[1] المؤلّف المرسل: علد الفتاح كرومي البريد الإلكترونيfateh.kerroumi@gmail.com

1. مقدمة:

يسعى الإنسان دائما ليطور من نظم معارفه وممارساته العلمية الحياتية والفكرية فتدعوه الحاجة إلى فتح آفاق جديدة لاستقطاب المعرفة بمختلف وسائطها عبر التواصل الإنساني الكفيل بتحقيق ذلك وفي ظل هذا التشاكل والتعالق الحضاري يحاول من جهة أخرى أن يثبت كينونته ويحافظ على مرجعيته وهويته ليضمن استمرارية التواصل بين تعاقب الأجيال.

يمثل الحجاج في خطابات التواصل الاجتماعي عنصرا هاما ووسيطا فعالا في الحفاظ على المرجعية الوطنية بمختلف أبعادها الفكرية والاعتقادية والثقافية والاجتماعية، وقد اتخذ أشكالا متنوعة جعلت منه خطابا مفتوحا بلاغيا تأويليا يرتبط ارتباطا مباشرا بهوية الإنسان وأصالته، وبين الإفراط والتفريط في تحميل الخطاب أبعادا تأويلية مكثفة، يأتي الحجاج في صورته الوسطية ليثبت فكر الإنسان ويرسخ مبادئ التماسك الاجتماعي البنَاء بين بلاغة الخطاب واستمرارية الدلالة والاستدلال.

فما أثر الخطاب الحجاجي الإسلامي في تكريس الوسطية الفكرية، من خلال المنهج الباديسي في الجزائر؟ وماهي خصائص ومجالات الخطاب الإسلامي ضمن المنهج الباديسي؟ ما علاقة الخطاب الحجاجي الباديسي بالأنساق المعرفي الحداثية ؟ وما تجلياته في ترسيخ مبادئ الهوية الجزائرية؟

مما لا شك فيه أن الحوار الثقافي اليوم والاستثمار في فكر الانسان أرضية خصبة تعول عليها الأمم والشعوب من خلال انفتاح الخطاب بمختلف أبعاده ومستوياته وأهدافه. فتكون بذلك الحجة اللغوية قناة لتمرير المعرفة وترسيخ مبادئ وقيم ثابتة ومتوارثة. وعلى غرار المجتمعات الأخرى يتميز المجتمع الجزائري بنسيجه الثقافي وأصالته العرقية وتماسكه الاجتماعي وقيمه الراسخة ومبادئه الثابتة؛ كل تلك الميزات وغيرها تعضدها الوسطية والاعتدال من خلال الحجاج البلاغي الذي يشكل حصانة ومناعة تحفظ لجزائرنا الحبيبة مكانتها عبر التاريخ وتعاقب الأجيال، إن الحجاج أو الحجة اللغوية هي في حقيقتها مؤسسة لسانية ذات بعد تواصلي يدل على العديد من القيم المشتركة بين أفراد الجماعة الواحدة: النفسية والاجتماعية، و التداولية، ويعتمد على جملة من الحجج التي تقوم على إقناع المتلقي والتأثير فيه، فتتحدد تطبيقاته عبر أدوات لسانية مخصوصة وتتداخل فيها عوامل خارجية تنعكس بشكل مباشر في طريقة صياغة المدلول أو المعنى المراد ترسيخه والدفاع عنه مع مراعاة عدة جوانب كالمقاصد، والسياقات، والمقامات، والإحالات الخارجية بوصفها أهم مداخله، وهي الضامن لاستمرارية العملية التواصلية الحجاجية بين المرسل والمتلقي.

2. تأصيل الخطاب الحجاجي قراءة في المفاهيم والآليات:

يعد الخطاب بكل أنماطه مجالا واسعا للحجاج، و هذا ما يجعله مرتبطا بالإشكالات التي تثيرها البلاغة ولسانيات الخطاب والتواصل. إن الحجاج- كما يشير إلى ذلك أولرون(1987)- ينتمي إلى فئة الأفعال الإنسانية التي تهدف إلى الإقناع، ومن هنا يستمد خصوصيته المتمثلة في تفعيل التعليل من خلال الوضع التواصلي ومراجعة تقنياته، وذلك بهدف تحقيق فعل التأثير[1].

انطلاقا من هذه الزاوية يمكن أن نفهم الإقناع في بعده الشامل؛ أي باعتباره استعمالا للغة محاولة لتعديل أو تحويل أو تقوية رؤية المستمع بما تتضمنه هذه الرؤية من مشاعر ومواقف وطرائق التفكير، وهو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية "[2].

ولعل هذا التصور هو ما جعل بلنجير (1996) يعتبر الحجاج ممارسة نفسية- منطقية تؤطرها ثقافة معينة و توجهها الرغبة في التفاعل مع "الممارسة-النفسية-المنطقية" للشركاء المعنيين. من هذا المنظور يمكن أن نفهم الإلحاح على ضرورة التأثير باستخدام أساليب مختلفة

[1]/- محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد، ليبيا، (د ط)، 2008، ص57.

[2]/- المرجع نفسه، ص 57.

ومتعددة يتحكم في تحديد طبيعتها السياق مما يجعلها تارة تميل إلى توضيح بعض مظاهر الأشياء، و تارة إلى حجب مظاهر أخرى و تارة أخرى إلى اقتراح مظاهر جديدة لم تكن مطروحة سلفا. ينقلنا هذا التنوع إلى تصور أوسع للحجاج باعتباره محاولة تعديل أو تحويل أو تقوية رؤية محددة باللجوء إلى اللغة، وما تتيحه من إمكانات تعبيرية عديدة. والواقع أن الأمر لا يقف عند حدود محاولة الإقناع برؤية محددة، بل يتخطاه ليشمل محاولة الإقناع بطرائق التفكير، بل وبطبيعة الإحساس أيضا [1].

نخلص إلى القول إن تنوع مقاربات الحجاج و التراكمات التي حققتها يجعل من الصعب ضبط الطرق التي نضجت بها نظرية الحجاج. فينتج مما يحيلنا إليه هذا المعطى تصور واسع للحجاج يجعله مرادفا للبلاغة ويجعل أنماط الخطاب المتعددة أنماطا فرعية للخطاب الحجاجي، وبالتالي يجعل إشكالات الحجاج متعالقة مع الإشكالات المؤسسة للبلاغة والتواصل وفن المناورة[2]. بل ومتعالقة أيضا مع وظيفية الحركية الشاملة للخطاب، وهذا ما يسمح بربط الخطاب بالوضع التواصلي الملموس، وربط الحجاج بالعوامل اللغوية و النفسية الاجتماعي، وهي في مجملها عوامل تتسم بخصائص أجملها "بيرلمان "كالآتي:

- التوجه إلى مستمع.
-التعبير عنه بلغة طبيعية.
-مسلماته احتمالية.
-لا يفتقر تقدمه وتناميه إلى ضرورة منطقية.
-ليست نتائجه ملزمة.

وهي خصائص تجعل مصادر الحجاج متعددة الروافد، إذ تشمل علوم اللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع، كما تشمل الديداكتيك والمنطق والبلاغة وغيرها. بل يتعدى الأمر إلى حدود ربطه بوسائل تواصلية غير كلامية كتعبيرات الوجه والحركات.

3. مجالات وتجليات الوسطية وعلاقتها بالحجاج اللغوي في الجزائر:

أما الوسطية فلها مظاهر وتجليات في العقيدة والعبادة والأخلاق والنظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وفي السلوك الفردي والجماعي، ونأخذ لها بعض الصور فيما يأتي:

3.1 الحجاج اللغوي الإسلامي ووسطية العقيدة والتصور في المنهج الباديسي:

إن أول ما يؤرق عقل الإنسان وتفكيره هو الجانب العقائدي فعليه شيدت حضارات وفلسفات وبادت بعد أن سادت وبسببه أقيمت المعارك والحروب عبر التاريخ واختلفت الشعوب وتمايزت واتحدت وتفرقت، أما الجزائر فرغم مزيجها العرقي وتنوعها الثقافي كانت عقيدتها مبنية على وسطية وسماحة الإسلام وهو ما ضمن لها الاستقرار، حيث جاءت عقيدة التوحيد في الإسلام موافقة للفطرة في سماحتها ووضوحها واستقامتها وبساطتها، فجاء فهم النصوص الشرعية من الجانب اللغوي مهم جدا للحجاج عن عقيدة أمة بعيدة عن الانحرافات.

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾(سورة البقرة – الآية 148).

[3] /- صولة عبد الله، الحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم .إشراف حمادي صمود منشورات كلية الآداب، منوبة، سلسلة آداب، (د ط)، 1999، ص 297 – 350 .

[1] /- السومري عبد الرزاق، الحجاج: منطلقاته، تقنياته ومفاهيمه، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط)، 2010، ص20.

(ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً، أي هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم)[1].

والبعد عن هذه الوسطية يوصل الإنسان إلى ضلال السعي والعمل ، وانحراف التصور والعبادة، وصدق الله حيث يقول:﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾ سورة الكهف – الآيات (103-106).

وأوجه الانحراف والضلال الذي هو نقيض الوسطية كثيرة في واقعنا وفي أحوال الشعوب من حولنا، مما يخرج الإنسان عن دين الله تعالى، وخير مثال على هذا الغلو والانحراف ما وقع فيه أهل الكتاب من يهود ونصارى، حيث اعتقدوا أنبياءهم أرباباً وآلهة من دون الله، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ سورة المائدة – الآية 77. يقول ابن باديس:" المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان ولهذا كان الإنسان أكثر، شيء جدلًا، غير أن التربية الدينية التي تضبط خلقه وتقوم فطرته، تجعل جداله بالحق عن الحق، فلنحذر من أن تطغى علينا المدافعة والمغالبة فنذهب في الجدل شر مذاهبه وتصير الخصومة لنا خلقًا، ومن صارت الخصومة له خلقًا أصبح يندفع معها في كل شيء ولأدنى شيء لا يبالي بحق ولا باطل وإنما يريد المغالبة بأي وجه كان"[2]

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ سورة النساء – الآية 171.

" والمنهج الوسطي يوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، ويعطي كلاً حسب حاجته دون إفراط أو تفريط" وكان المذهب الشائع عند النصارى أن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى تعذيب النفس واحتقارها، وحرمانها من جميع الطيبات المستلذة، واعتقاده أنه لا حياة (للروح) إلا بتعذيب الجسد، وكل هذه الأحكام والشرائع قد وضعها الرؤساء، وليس لها أثر في شريعة الله، وقد تفضل الله على هذه الأمة بجعلها أمة وسطاً، تعطي الجسد حقه، والروح حقها، فأحل لنا الطيبات، وحرم علينا الخبائث، وأمرنا بالشكر عليها، ولم يجعلنا جثمانيين خلّصاً كالأنعام، ولا روحانيين خلّصاً كالملائكة، بل جعلنا أناسيّ كله بهذه الشريعة المعتدلة "[3].

فقد بيّن الله حقيقة عيسى بن مريم عليه السلام بأنه لا يعدوا أن يكون رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، ونهاهم عن القول بالتثليث المتمثل في الأب والابن وروح القدس، واعتبار أن المسيح هو الابن، وأثبت سبحانه أن الإله واحد لا يكون له ولد.

ولذلك حكم الله بالكفر على من اعتقد بعقيدة التثليث التي نهى الله عنها في الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (سورة المائدة – الآية 73)، وحكم أيضاً بالكفر على مَنْ قال بأن المسيح هو الله، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (سورة المائدة – الآية 72).

---

[1]/– الجامع لأحكام القرآن – ج 1 ص 104 .

[2]/– عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، لبنان، 1995، ص326.

[1]/– محمد علي الصابوني، "روائع البيان " تفسير آيات الأحكام "ج1، ص166 .

ليست النصارى فقط هم الذين انحرفوا وغالوا في عقيدتهم ، فاليهود من قبلهم فعلوا ذلك أيضاً حيث اعتقدوا أن عَزير هو ابن الله، قال تعالى في بيان ضلالهم وانحرافهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة التوبة – الآية 30).

ومن هذا الغلو الذي اتصف به أهل الكتاب أنهم اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة التوبة – الآية 31).

فالله يريد أن يُعبد وحده، ولا يُشرك به أحدٌ سواه، فهو الإله المعبود بحق وهو منزهٌ عن شركهم وانحرافهم وضلالتهم، إذ كيف يُنزلون الأحبار والرهبان منزلة الإله في عبادتهم وطاعتهم وتحليلهم وتحريمهم.

ولذلك جاءت الآيات القرآنية بغلو أهل الكتاب، ليحذر المسلمون الوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من انحراف وضلال، وبُعدٍ عن الاستقامة والاعتدال في أمور العقيدة

"ويكون التفريط في العقائد أو في المفاهيم الدينية الأساسية بالتهاون في القضايا التي تدخل في هذه المجالات، والتسامح في عدم الأخذ بها، هذا التهاون من شأنه أن يفسد هذه العقائد والمفاهيم، ويجعلها عرضة للتحريف أو الابتداع، وبمرور الزمن يدخل في مفاهيم الدين وعقائده ما ليس منها، ويخرج من مفاهيم الدين وعقائده ما هو منحط، ويتحول الدين فيكون أوضاعاً بشرية تعبث بها الأهواء، ويتلاعب بها الشياطين وأصحاب المصالح الخاصة وأهل الأهواء، فلا يجوز التهاون في عقدية ثابتة عقلاً أو شرعاً بصفة قطعية كالإيمان بالله وصفاته وكمالاته وأسمائه الحسنى، وكالإيمان بالملائكة والجن، والإيمان بسائر الأخبار القطعية من أنباء الغيب الحاضرة أو الغيوب الماضية أو الآتية" [1]

كما أن منهج القرآن والسنة في تقرير حقائق العقيدة في العقول وآثارها في النفوس لم يعتمد على المنهج الفلسفي النظري على غرار مناهج الفلاسفة ومن سار على نهجهم من المتكلمين الذين حولوا قضاياها إلى قضايا نظرية تجريدية وافتراضية بل إنه اهتم بتقوية الحجة اللغوية التي جعلت الصلة بين الوجدان الإنساني والخالق ليتسنى للإنسان نوع من المعرفة القلبية الروحية تثمر من خلالها الحقائق الإيمانية والمعارف الفكرية التي تصل الأرواح بالملإ الأعلى[2]، وبنصوص وخطابات مفهومة لا تحمل أعباء التأويل[3]، ولا على غرار مناهج بعض الغلاة الذين أسقطوا كليا العقل، بل إنه جعل النظر والتأمل في خلق الله واستخدام ملكة العقل والحجة اللغوية باللسان العربي المبين سبيلا لمعرفة الخالق وبدائع صنعه، فجاء منهجا يتكامل فيه الإدراك العقلي من خلال حجج عقلية قريبة من الفطرة ومن خلال توجيه الخطاب العقدي للتأثير في النفوس بعد مخاطبة العقول السليمة، فتكامل بذلك طريقا المعرفة النقلية والمعرفة العقلية في صياغة عقيدة الإنسان المسلم وصياغة وجدانه وسلوكه[4]

وقد أبرز ذلك ابن باديس بقوله:" وما يكون بين المسلمين من خلاف قد ينشأ من مقتضى تفاوت النظر في القوة الفكرية من أصل الفطرة وتباينهم في العدة العملية بحسب الزمان والمكان والبيئة، كما قد ينشأ من مقتضى عوامل سياسية داخلية في تاريخ الإسلام ودسائس أجنبية من جمعيات سرية تعمل على هدمه مستترة باسمه، ولقد كان افتراقهم السبب الأول الأقوى لجميع البلايا والمحن الداخلية والخارجية التي لحقتهم في جميع أجيالهم أيام قوم وضعفهم وإن في تاريخهم لعبرة وإن في أنبائهم لمزدجر"[5] وبما أن مفهوم الوسطية في الجزائر يأخذ أبعادا

---

[1]/– محمد عبد اللطيف الفرفور، الوسطية في الإسلام، الدار المصرية، مصر، ط2، 1980، – ص 87.

[2]/– عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الأنوار، الرياض، ط خامسة،1398هـ/ 1978م. ص21

[3]/– محمد عمارة، الموقع والمعارك الفكرية، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2009، ص61.

[4]/–شكري المبخوت، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، جامعة تونس، كلية الآداب منوبة، تونس، (د ط) 1999، ص351.

[5]/– الشهاب، ج8 ،م12 ،شعبان، 1355 نوفمبر 1936.

قرائية تتمثل في خاصية التوازن والعدل والاعتدال، فقد قام الفكر الإسلامي الجزائري في نظرته للكون وللحياة وللمجتمع وللإنسان وللعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي وبين المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات، والعلاقات التي ينبغي أن تقوم بين البشر عامة على الوسطية بما تعنيه من عدل وتوازن، اعتقادا وحياة وممارسة والحجج اللغوية والقرائن البلاغية كلها تؤيد ذلك وترغب فيه عدلا وبيانا من ذلك «الميزان» { والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزَان أَلَّا تَطْغَوا فِي الميزَان وَأَقيمُواْ الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الميزَانِ }(سورة: الرحمن، الآية:07)، فجاء التصور الإسلامي لجميع مجالات الفكر والسلوك والمجتمع مبنيا على مراعاة التوازن المذكور: توازن بين الروح والجسد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الدين والدولة، وبين الذات والموضوع وبين الفرد والمجموع وبين الفكر والحياة[1]. وعليه فملخص دعوة ابن باديس الإصلاحية يقصد بها رجوع المسلمين إلى عقائد الإسلام المبنية على العلم وفضائله، المبنية على القوة والرحمة، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان[2] ونظمه المبنية على التعارف بين الأفراد والجماعات والتآلف والتعامل والتعاون، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ومن اتقى الله فهو أنفع الخلق لعباد الله.

3.2 الحجاج اللغوي الإسلامي وأثره في ترسيخ الوسطية الاجتماعية في الجزائر:

إذا كان الانسان اجتماعي بطبعه، فإن الحضارة الاجتماعية تبنى على (الدين واللغة والأرض) وهي ما يوحد المجتمعات أضف إلى ذلك القيم التاريخية المشتركة التي توحد بين طبقات المجتمع.

يمثل المجتمع الجزائري أصالة أمازيغية في تركيبته الاجتماعية المتنوعة والمتوزعة على المساحات الجغرافية الشاسعة للوطن، ورغم الفوارق الاجتماعية المتباينة في مختلف المجالات يبقى القاسم المشترك بين كل الطبقات وبين جميع اللهجات وبين مختلف المناطق الجانب اللغوي في طابعه الحجاجي بحكم عامل اللغة المرسخة للهوية الاجتماعية وقد جعلت منها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين شعارا أساسا لبناء وحدة اجتماعية وهوية راسخة فكانت اللغة العربية في وسطيتها وكثافتها الإيحائية وسعتها وقبولها جامعة للمجتمع تذوب داخلها كل القيم الأخرى وتجعل التواصل بين أفراد المجتمع تواصلا وسيطا لتحقيق الوحدة وتثبيت الاعتدال الاجتماعي الذي يسهم بدوره في تنمية الوطن. وقد يكون الأخذ عن الآخر دونما انبهار فيما لا يمس بالأصول أمرا مقبولا عند الشيخ ابن باديس يقول ابن باديس:"كن عصريًا في فكرك وفي عملك وفي تجاربك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك، فاحذر كل متعيلم يزهدك في كل علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة البشرية، ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة، وخدمها علماء المسلمين بالتحسين والاستنباط ما عرف منها في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم"[3]وفي هذا الإطار يدعو ابن باديس الأفراد إلى الأخذ من حضارة الغرب؛ لأن فيها الفوائد الكثيرة يقول: "فإذا أردنا اليوم أن نقتبس منهم كما اقتبسوا منا ونأخذ منهم كما أخذوا منا فعلينا أن نخالطهم ونخالطهم في ديارهم؛ حيث مظاهر مدنيتهم الضخمة في مؤسساتهم العلمية والصناعية والتجارية، في أحزابهم على اختلاف مبادئها، في جمعياتهم على اختلاف غاياتها، في عظمائهم أصحاب الأدمغة الكبيرة التي تمسك بدفة السياسة وتدير لولب التجارة وتسير سفينة العلم، فالذين يخالطونهم هذه المخالطة بتمام تبصر وحسن استفادة يخدمون أنفسهم وأمتهم خدمة لا تقدر، إن الحجاج اللغوي في صورته الاجتماعية الجزائرية يمثل خطابا وسطيا يجمع بين الفوارق الثقافية والعلمية للمجتمع، وينعكس هذا الخطاب في شتى وسائل التواصل الاجتماعي الجزائري وعلى اختلافها. فيبقى الخطاب اللغوي الاجتماعي التواصلي مفهوما لدى ذوي الثقافات البسيطة والطبقات العلمية المثقفة وبين مختلف الشرائح العمرية والجنسية للمجتمع الجزائري. ومن أبرز خصائص الخطاب الحجاجي اللغوي اعتماده المنهج القرآني في علاج القضايا الاجتماعية والاقتصادية فهو لا

[1]/- محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية المنطقية اللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005.ص32.

[2]/- الشهاب، ج8 ،م12 ،شعبان، 1355 نوفمبر 1936.

[3]/- المرجع نفسه.

يقيم البناء الاجتماعي، أو السياسية الاقتصادية على أساس الصراع بين الأفراد أو الطبقات، بل إنه قبل أن يضع القوانين، وبعد أن يرسي أسس العقيدة، يقيم دعامات أخرى إنسانية تشيع بين الناس أواصر الرحمة، والحب، والتسامح والفضل والتعاون ومراقبة الضمير وخشية الله وإلى غير ذلك من المعاني وتتحدد معالم الصياغة الإنسانية للمجتمع في التصور الإسلامي في عدة جوانب منها:

-إيمان الإسلام بنظافة الفطرة الإنسانية، وبأنها لم تولد آثمة أو خاطئة- كما يقول النصارى- وإنما ولدت كريمة طيبة تنزع إلى المثالية، وما يلحقها من عيوب إنما هو حصاد تأثرها بأوضاع غير كريمة في المجتمع. والإسلام يعتمد في تشريعاتها على هذا الرصيد الكريم للفطرة ويحاول تحريك الإنسان بالإرادة الذاتية من داخله.

-إشباع الإسلام لكل جوانب الإنسان- بالطرق الحلال- وتصعيد كل غرائزه وليس كبتها أو حرمانها بالرهبانية المبتدعة أو الزهد الكاذب، "فالإسلام ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة، ولكنه منهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية [1]

-الحق والعدل من الخصائص الكبرى لا يدعو الإسلام إلى سيطرة طبقة على طبقة، ولا إلى "ديكتاتورية" فردية أو طبقية تنشر باستبدادها الظلم في المجتمع، وحتى المجتمع الإسلامي كله ليس مباحا له أن يستحل ثروات شعوب أخرى أو يستبد بها؛ فالظلم ظلم، والتسلط الظالم مرفوض في منطق العدالة الاجتماعية الإسلامية[2]، بل العكس هو المفروض على الأمة الإسلامية؛ فهذه الأمة الوسط الشهيدة على الناس مكلفة بإقرار العدل والحق في الأرض كلها.

4. الحجاج اللغوي الباديسي:

جاءت النظرة الباديسية للغة نظرة دقيقة جدا بوصفها مبدأ من مبادئ الهوية التي تبنى عليها القضية الجزائرية وشعار الجمعية، وإن كان الخطاب اللغوي الباديسي يراعي السياقات وحالات المخاطب ومستواه الثقافي والفكري وتوجهه الأيديولوجي؛ إلا أننا يمكن أن نقول أن الخطاب الباديسي نظرة شبه متكاملة للوعي بالرسالة وقنوات نقلها خاصة تخير المصطلحات في الشق التعليمي ومحاججة المخالف الدعوة إلى المنهج خاصة المنهج التعليمي والقارئ حيث يقول: « فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله، وليحذروا غيرهم منه . ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن ينتبه الغافل ، ويتعلم الجاهل ، ويقلع الضالون عن ضلالهم ، ولو بطريق التدريج ، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم ، وقاموا بفريضة النصح وخدموا الإسلام والمسلمين»[3]ولا يخرج ابن باديس عن منهج القرآن في الدعوة إلى الحوار بين المسلمين، ويرى أنه على الإخوة من الجانبين وبلسان الدين والأخوة الإسلامية أن يقلعوا عن المهاترة والمشاتمة والمغامزة والملامزة مما هو حرام بإجماع المسلمين، ويسلكوا في المناظرة طريق القرآن الكريم بيانًا لقول الخصم، من دون تعرض لشخصه وإقامة الحجة التي ترد عليه، مع حسن السلوك والقصد في الوصول إلى الحقيقة والإذعان لها إذا ظهرت على أي لسان.

يقول: "ومع الشعور بأن الراد والمردود عليه أخوان يريد كل واحد منهما أن يهدي أخاه إلى ما يراه خيرًا له ويصرفه عما يراه شرًا فإن من لم يحسن القصد والسلوك يكون خابطًا ومرائيًا، ومن لم يكن ذا إذعان للحقيقة يكون معاندًا، ومن لم يشعر بهذه الصفات أو بعضها كان شرا أو بلاءً على نفسه أو على غيره في قوله وعمله وكتابته"[4]

---

[1]/- أسد محمد، الإسلام على مفتر الطرق، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (د ط)، 1992، ص22.

[2]/- عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (د ط)، 2010، ص117.

[3]/-عبد الحميد ابن باديس : «تفسير ابن باديس» ، جمع وإعداد ، د/توفيق محمد شاهين : محمد الصالح رمضان، دار الفكر، بيروت، ط3 ، (1399هـ _ 1979م) ص183-184.

[4]/- الشهاب، العدد2، 1، 23 ذي الحجة 1354، 23 جوان 1927.

4.1 الحجاج الإسلامي اللغوي في الخطاب السياسي الجزائري:

ينشأ الخطاب السياسي في بيئة فكرية وثقافية، وفي ظروف اجتماعية وسياسية محددة، وهذا ما جعله يعكس انشغالات المرحلة التاريخية ومشكلات المجتمع الراهنة، ففي أواخر الثمانيات من القرن الماضي سجل الخطاب السياسي العربي تحولا كبيرا في مواضيعه تنبع عنه الاستخدام الموسم لمصطلح الديمقراطية وممثلاتها كالمجتمع المدني وحقوق الإنسان، وكانت النتيجة أن ظهر الخطاب الديمقراطي بوصفه جزء أساسيا من مكونات الخطاب السياسي العربي المعاصر[1].

يعتمد الخطاب السياسي في الجزائر تقنية تسمح باستمالة السامع أو القارئ إلى الكلام بتذكيره بموقفه كمتلق بضرورة الاستماع أو التلقي، فالخطاب السياسي الجزائري الذي يؤسس الفكرة عبر مبدأي المحاجة والتعليل فيؤدَّيان بالضرورة في السياق الايجابي من صورة التواصل إلى الاقتناع[2] تلعب القصدية التواصلية على البحث داخل متضمنات الخطاب التي لا تتضح إلا بالكشف عن القوانين التي تميز بنيته وتحركه، أي أن هناك قوانين تدخل في توظيف المعنى الضمني وعليه فالخطاب السياسي الجزائري يعتبر: تمثيلا للمكان، وتمثيلا للجماعة اللغوية وللعلاقات الاجتماعية وتمثيلا لعلاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، فالرجل السياسي يجب عليه أن يكون باعتبار مرسلا: ذلك الرجل الذي يجعل كلام مجموعته مستحسنا أي الذي يتحدث إل جمهوره بالكلام الذي ينظره منه، ذلك الذي يحمل كلاما مسموحا ولكن في الوقت ذاته يصنع السلطة. يبنى الخطاب السياسي على الحجاج باعتباره جنسا من أجناس التواصل يتميز بطبيعة المبادئ التي تحكمه و البنيات التي تحدد القضايا التداولية التي تعطيه هويته كقيمة تواصلية اجتماعية، ويحمل الخطاب السياسي رسالة وينشر إيديولوجية مهما كانت صراحتها ويحرك نحو الفعل مباشرة أو تمهيدا ويصيب الحجاج كثيرا من المستويات اللغوية للخطاب السياسي مثل المعجم والتراكيب ذلك أنه يصطنع الحجج البلاغية والجدلية حتى يستهدف الإقناع والاستقطاب و التأثير واستقرار الخيال.[3]

يقول ابن باديس داعيا الجزائريين إلى تمثل حجاج لغوي يوحد المجتمع وينبذ الفرقة بينهم:" علينا معشر الجزائريين اليوم أن نتدبر تلك العبر، وأن نزدجر عما في مصائب الفرقة من خطر، فقد قامت بين كُتَّابنا خلافاتٌ في مسائل دينية أدت إلى افترا قات حزبية، حتى خرجت ببعض الكتاب من الجانبين إلى مراعاة سهام التشاؤم وقذائف السباب مما لا ترتضيه مروءة ولا يسيغه عقل ولا دين ــلا نريد ونحن في موقف الدعوة إلى الحسن_ أن نذكر من المبادئ ولا من صاحب القسط الأكبر من ذلك الفحش والبذاءة، مما يعيدنا إلى ما نود طرحه والإعراض عنه"[4]

أما المسألة السياسية في تفاصيلها المتعلقة بالنظم وشكل الدولة والآليات الضابطة لعلاقة الحاكم بالمحكومين تنصيبا وخلعا وتداولا....إلخ كل ذلك يدخل في إطار السياسة الشرعية، ومن ثم تعد قضاياها قضايا اجتهادية ظنية تقتضي في كل عصر اجتهادا متجددا تتحقق به مصالح أهله. غير أن الاجتهاد السياسي الجزائري يبقى إيقاعه مضبوطا بالالتزام بالقيم السياسية الإسلامية إلى حد بعيد.

4.2 القراءة الباديسية للخطاب الحجاجي السياسي:

تنطلق النظرة الباديسية من المستوى الحضاري المفتوح الذي يحمل في طياته مبدأ الإنسانية والتراكم المعرفي والمعاملاتية النفعية وحفظ الذمم، كلها تسير تحت ضابط شرعي كفله الإسلام، حيث يؤكد ذلك قول زكي الميلاد: «أن العالم لا يستطيع أن يعالج أزماته ومشاكله بالسياسة فحسب ، أو بالاقتصاد والعلم فقط ، فالسياسة تحولت إلى أداة لجلب المصالح ، والاقتصاد محكوم بالمنافع وبقاعدة الربح والخسارة ، والعلم

---

[1]/- صالح بلحاج، أبحاث وآراء حول مصطلح التحول الديمقراطي وتحليل السياسات العامة في الجزائر، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2012، ص08.

[2]/- محمد عمارة، الإسلام والسياسة، الرد على شبهات العلمانيين، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة،(د ط) 2007، ص49.

[3]/- محمد أديوان، مكونات الوعي السياسي وتقنيات انشغال الكتاب عند ابن المؤقت المراكشي في كتابه: أصحاب السفينة، ومصطفى الشاذلي، الخطاب السياسي في المغرب، كلية الآداب الرباط، ط1، 2002، ص122.

[4]/- أثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2005، الجزائر، ج5 ، ص71-72.

انفصل عن القيم ، والذي يضيفه الإسلام في هذا المجال ، مجال العلاقات الدولية هو إدخال منظومة القيم والأخلاق (التقوى) . فقد بات من المؤكد أن العالم بأمس الحاجة إلى منظومة من القيم والأخلاق؛ لأن من أشد ما يفتقده العالم المعاصر ويتضرر كثيرًا بافتقاده ، هو انعدام العامل الروحي والوجداني والأخلاقي في العلاقات الدولية وبين الأمم والحضارات»[1] وإذا كانت هذه النظرة دعوة لمراعاة التعامل مع الآخر في سياق حضاري راق فإن احترام التسلسل المعرفي دون إقصاء للثوابت أحد أبرز النقاط التي أكد عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس بقوله « إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله ؛ فأخذ الأصول الثابتة من الماضي ، وأصلح شأنه في الحال ، ومد يده لبناء المستقبل؛ يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه، معرضًا عما لا حاجة له به، أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته»[2] إن التوقف بهذه المعالم والوصايا والحكم في خاصية التواصل الحضاري عند الحدود التي ورد بها خطاب ابن باديس، مدعاة لمراعاة المقصدية منها ، فقد جاءت لتتنزل على واقع معين في سياق رؤية إسلامية عامة ، وروح إسلامية سمحة صادقة.

4.3 الحجاج اللغوي وأثره في وسطية التفاعل الحضاري:

إن الخصوصية في اللغة والحجاج اللغوي المتمثلة مضامينه في الجانب الاجتماعي والاعتقادي والثقافي لا يُراد لها أن تعزل كل شعب بلغته وخاطبه عن الآخرين، بقدر ما يراد لها أن تمهد الطريق لهم للتواصل والتعامل مع الآخرين، وقدرته على التعايش مع كل الجماعات البشرية على مرّ الدهور والأيام، معتمدا الحجة اللغوية الوسطية، ومن بين الخصائص:

الاعتراف بالاختلاف واحترام الرأي الآخر.

التعارف والتعايش بين الأمم والشعوب وقبول الآخر.

التعاون في القضايا الإنساني العامة.

الإيمان بالتعددية الحضارية الثقافية التشريعية والسياسية والاجتماعية.

العمل على تنمية آفاق التواصل الحضاري، ومن ذلك الإفادة من الأخر في المنهج العلمي في التكنولوجيا الإدارية المتقدمة، وتجديد الإحساس بقيمة الوقت وقيمة العدل في ظل مناخ كريم، والدعوة إلى قيام شراكة إنسانية قويمة، قوامها التبادل العادل للمصالح، والسعي الجاد لخفض أصوات الغلاة من الطرفين.

العمل على إيجاد القواسم المشتركة والإعلاء من شأن الأنساق المتفقة، فالحضارات تتقاسم أقداراً من القيم مثل العدل والمساواة والحرية ..إلخ، وأهل الحكمة من كل ملة يستحقون الشكر والعرفان.

5. خاتمة:

ومما نخلص إليه في الختام أن الحجاج اللغوي له أثر بارز وهام في ترسيخ الفكر وتثبيت التوجهات الأيديولوجية للإنسان وهذا راجع إلى الأبعاد التأويلية التي يفرضها السياق والمقام فالحجاج اللغوي خطاب مكثف يحمله القارئ والمتكلم أبعادا تأويلية من شأنها تأثيث قضايا بعيدة جدا ينشدها الإنسان في عالم مثالي. كما يتضمن أساليبا وآليات استقطاب للمقروء بل وفضولا وإدمانا عليه، فيأتي الحجاج اللغوي ليستثير في الانسان أواصر الهوية ويدغدغ داخله مبادئ ثابتة لتحقيق الانتماء والكينونة.

---

[2]/- زكي الميلاد _ تزكي على الربيعو ، « الإسلام والغرب ، الحاضر والمستقبل» ، (دمشق ، بيروت ، دار الفكر : ط 1 _ 1418هـ _ 1998م) ص 41.

[2]/- ابن باديس ، الآثار ، منشورات وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ج3 ص 9 .

إن الحجاج اللغوي أنموذج حي للوسطية بمختلف مجالاتها الحياتية الاعتقادية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية. والاستثمار في العنصر البشري اليوم كفيل بأن يضمن الاستقرارية إذا ما غطى الحجاج اللغوي أسئلة مشبوهة وحقق الوسطية المعتدلة التي يتعايش في ظلها الانسان والبشرية بمختلف لغاتها وأجناسها وثقافاتها مؤمنا بمبادئه وهويته.

قائمة المراجع:

- القراءان الكريم، رواية ورش عن نافع.
2/- ابن باديس عبد الحميد : «تفسير ابن باديس» ، جمع وإعداد ، د/توفيق محمد شاهين : محمد الصالح رمضان، دار الفكر، بيروت، ط3 ، (1399هـ _ 1979م)
3/- ابن باديس ، الآثار ، منشورات وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ج3
4/- أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الأسماء للنشر، بيرت، دط، 1981.
5/-محمد أديوان مكونات الوعي السياسي وتقنيات انشغال الكتاب عند ابن المؤقت المراكشي في كتابه: أصحاب السفينة، دار الثقافة، الرباط، ط1، 2002.
6/- محمد عمارة، الموقع والمعارك الفكرية، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2009.
7/-محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية المنطقية اللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005.
8/- محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد، ليبيا، 2008.
9/- د. محمد عبد اللطيف الفرفور، الوسطية في الإسلام، دار السلام، بيروت، د ط، 1992 .
10/- محمد عمارة، الإسلام والسياسة، الرد على شبهات العلمانيين، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2007
11/- صالح بلحاج أبحاث وآراء حول مصطلح التحول الديمقراطي وتحليل السياسات العامة في الجزائر، ط1، 2012.
12/- صولة عبد الله، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، 1999.
13/-عامر مصباح، الاقتناع الاجتماعي، عالم الكتاب، القاهرة، ط1،1984.
14/- عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الأنوار، الرياض، ط 5 ،1398هـ/ 1978م.
15/- شكري المبخوت، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، منوبة، تونس، 1999.